الدكتور منيف الرزاز

إشتراكية البعث
بعض ملامح النظرية والتطبيق

البعث والاشتراكية - الكتابات الأولى
13



منشورات 1989 الطليعـة

في سبيل مجتمع عربي موحّد حُرّ و ديمقراطي
الطليعة العربية في تونس

اشتراكية البعث - بعض ملامح - النظرية والتطبيق

الدكتور منيف الرزاز
بغداد - 1978

طرح البعث ، منذ نشأته ، الاشتراكية وجها أساسيا من وجوه بعث الأمة العربية ، فكانت ، بذلك أساساً من أسس نظرته الشاملة . وفي السنوات العشر التي انقضت من عمر الثورة في القطر العراقي ، أتيح لهذه النظرة أن تجد طريقها الى التطبيق ، وأن تتحدد خصائص اشتراكية البعث ، على رغم قطرية التجربة ، تحديداً واضح المعالم .

إن الهدف من هذه العجالة هي أن نتلمس هذه الخصائص الناتجة عن العلاقة الجدلية بين نظرية البعث وممارستها في التطبيق .

اشتراكية البعث اشتراكية علمية ■

إن أولى هذه الخصائص هي أن اشتراكية البعث اشتراكية علمية .

على ان هذه الجملة ، على اطلاقها ، تحتاج الى بعض الوقفة . ذلك ، ان اكثر من وهم قد داخل تعبير « الاشتراكية العلمية » ، بحيث أصبح توضيح التعبير ضرورة من الضرورات الأساسية . فبعضهم توهم ان « الاشتراكية العلمية » هي « الماركسية » بقضها وقضيضها ، وان من لم يأخذ بهذه الماركسية اخذاً شاملاً كاملاً بحيث يعتبرها « الحقيقة الخالدة » التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فلن يتاح له أن

يدخل جنة « الاشتراكية العلمية » . وكان لا بد أن يتبع هذا الوهم وهم اخر ، هو ان « الاشتراكية العلمية » لها ، في كل العصور والأزمنة ، وفي كل الظروف الموضوعية ، لون واحد وطعم واحد ورائحة واحـدة ، إن لم يكن « اشتراكياً علمياً » بهذا المعنى الضيق كل الضيق ، لم يكن اشتراكياً على الاطلاق .

لا حاجة بنا الى القول إن مثل هذا الطرح انما يجعل من الماركسية « ديناً » لا « علماً » ولا « فلسفة علمية » . وإنه يمنح ماركس مرتبة لم يطمح هو نفسه الى أن يشغلها ، بل لعله ، رحمه الله ، كان يرفضها اشد الرفض حين كان يرفض ان يطلق على طروحاته اسم « الماركسية » .

إن الذي فعله ماركس حين تهجم على « الاشتراكية الطوباوية » ودعا الى « اشتراكية علمية » ، هي أنه رفض أن تبنى الاشتراكية على « تمنيات » وعلى « احلام » وعلى وهم « فصل الاشتراكية عن السياسة » . وإنه دعا الى بناء الاشتراكية على قواعد علمية مستمدة من واقع الصراعات في الحياة ، ومن واقع القوانين المسيطرة على النظام الرأسمالي ، ومن واقع تطور هذه الصراعات تطوراً « ضرورياً » يصل بها الى حدود « الثورة الاشتراكية » . لقد دعا ، اذن ، الى الانطلاق من « حقائق الحياة » ومن « تناقضات المجتمع » ، للوصول الى الاشتراكية المنشودة .

إن هذا لا يعني ، ولا يمكن أن يعني ، أن الاشتراكية خالية من « القيم الاخلاقية » ، والا لما أفاض في شرح التعاسة الهائلة التي يعيش فيها عمال عصره . كما أنه لا يعني ، ولا يمكن ان يعني ، أن الاشتراكية ، ما دامت محتمة علمياً ، فهي لا بد آتية بغير نضال . ولا يعني ، ولا يمكن أن يعني ، أن « حقائق الحياة » وان « تناقضات المجتمع » هي هي في كل العصور وفي كل الأماكن وفي كل الظروف الموضوعية ، وان الانقلاب عليها لا بد ان يحقق ، بالضرورة ، صورة واحدة للاشتراكية لا سبيل الى تغييرها وتبديلها .

إن اشتراكية البعث اشتراكية علمية . بمعنى انها ليست نتاج « امنيات » ولا « احلام » ولا « نظرات غيبية » . وإنما هي استجابة طبيعية وحتمية لتناقضات الأمة العربية والوطن العربي مع الاستعمار والامبريالية ، ومع التخلف ، الموروث منه والجديد ، واستجابة طبيعية لتلاحم الصراع القومي مع الصراع الطبقي ، وهي ، فوق

ذلك ، استجابة طبيعية لتطلعات الأمة العربية الى مستقبل معطاء . بهذا تكون اشتراكية البعث « علمية » و« اخلاقية » في آن معاً . تكون « علمية » من حيث الحقائق الموضوعية التي تجعلها « حتماً » لا « اختياراً » . وتكون « أخلاقية » من حيث انها تقع في حسابها ، منذ البدء ، حرية الانسان ، وسعادة الانسان ، وتفجير طاقات ومواهب الانسان ، وفي كل من المجتمع العربي ومن المجتمع العالمي .

اشتراكية البعث هي من اشتراكيات العالم الثالث ■

اشتراكية البعث هي من اشتراكيات العالم الثالث .

•

فهي ، اذن ، ليست من اشتراكيات الأممية (او الدولية) الأولى او الثانية او الثالثة او الرابعة . فهذه ، جميعاً ، تستمد خصائصها الأساسية من التناقضات الطبقية المحض في داخل المجتمع المصنع الامبريالي . وإنما هي اشتراكية تستمد خصائصها الأساسية من تناقضات العالم الثالث مع الامبريالية من جهة ومع التخلف من جهة اخرى .

هذه التناقضات تجعل الصراع القومي والصراع الطبقي ، في اشتراكية البعث واشتراكيات العالم الثالث ، وجهين لعملة واحدة .

فالخصم ، أولاً ، ليس الطبقة البورجوازية المالكة للصناعة . وإنما هو الامبريالية الاحتكارية المستغلة ، متحالفة مع الشريحة الاجتماعية العليا ، الاقطاعية والبورجوازية .

والمهمة ، ثانياً ، ليست مجرد اعادة ملكية الثروة القائمة الى المجتمع ، او إعادة توزيعها ، كما هو الحال في البلدان المصنعة، وإنما هي تحرير للبقية الباقية من الثروة من سيطرة الامبريالية وحلفائها المستغلين المحليين وخلق لها وتنمية وتوجيه منذ البدء ، نحو الملكية الاجتماعية العامة ، لتكون في خدمة المجتمع والانسان ، وفي خدمة تحرره الكامل واستقلاليته الكاملة .

أما الاداة ، ثالثاً ، فهي كل الشعب المستعمر المستغل (بفتح التاء والغين) المستلبة حقوقه وهويته وحريته ، أي كل الطبقات الكادحة المسحوقة ، التي هي ضحية الامبريالية وضحية حلفائها المحليين في نفس الوقت .

فاشتراكية البعث ، واشتراكيات العالم الثالث ، هي صراع قومي . وهي صراع طبقي ، وهي صراع تحرير وتحرر ، وصراع تنمية للمجتمع وللانسان .

اشتراكية البعث اشتراكية عربية ■

وعلى رغم أن اشتراكية البعث هي من ضمن اشتراكيات العالم الثالث ، فإن لها من سماتها الخاصة ما يميزها عن هذه الاشتراكيات نفسها ، ويجعلها « اشتراكية عربية » ، لا من حيث « الطريق الى الاشتراكية » فحسب ، بل من حيث « خصائص هذه الاشتراكية » نفسها .

ـ هذه السمات الخاصة نابعة ، أولاً ، من اصالة الأمة العربية ومن تواصلها الحضاري . فهي ليست امة مقطوعة الجذور ، ولا امة يراد خلقها من جديد . وإنما هي أمة طبعت حضارتها بخصائصها ، وطبعتها حضارتها بخصائصها . إن لها تراثاً يبدأ من كل الارهاصات الحضارية التي سبقت الاسلام ، ويصل ذروته في الاسلام ، الذي جاء معبراً عن نزوع الروح العربية نحو التحقق أحسن تعبير . إن هذه الأصالة الحضارية متوفرة في تكوين الأمة نفسها ، وهي تمدها بخاصية القابلية الامتصاصية القادرة على أن تتفتح على الحضارات ، وأن تأخذ من هذه الحضارات ما تشاء ، وتشاء لها ظروفها الموضوعية ، وأن تطبع ما تأخذ بالطابع الحضاري العربي ، وان تحيله الى شيء خاص بها ، ثم ان تفيض به على الدنيا عطاء عربياً خالصاً .

ذلك كان امرها مع الفلسفة اليونانية في الماضي . وذلك هو امرها مع الأفكار الاشتراكية في عصوها الحاضر .

ـ هذه الأصالة الحضارية تدفع بالأمة العربية الى أن تكون اشتراكيتها اشتراكية انسانية واخلاقية ، الى جانب كونها اشتراكية مادية . إنها لا يمكن ان تطمئن الى ان التغييرات المادية وحدها هي قاعدة البنى الحضارية . وان كل ما في هذه الحياة من بنى سياسية وثقافية واجتماعية هي مجرد بنى فوقية منعكسة عن القاعدة المادية . ولكنها تؤمن ، كما تدفع بها حضارتها الى ان تؤمن ، بأن بين الفكر والأخلاق والمادة علاقة جدلية مستمرة . كل منها يطبع الآخر بطابعه وينطبع به . كل منها مؤثر ومتأثر في آن معاً .

إن انعكـاس هذا المعنى ، في التـطبيق ، له ابعـاد في منتهى الأهميـة . فـالتغيير الاشتراكي ، بهذا الفهم ، لا يجوز أن ينتظر حتى يتم تغير معين في وسيلة الانتاج ، وأن ينضج هذا التغيير . وإنما هو مطلوب لـذاته ، لقيمتـه الانسانيـة ، لما يحمله من معـاني العـدالة والمسـاواة والحريـة . ان التغيير المـادي لا بد أن يـطبع نـوع الاشتراكيـة ونوع العلاقات الاشتراكية بطابعه . ولكنه ، وحده ، ليس سبباً للاشتراكية ، ولا مبرراً وحيداً لها .

ـ واشتراكية البعث اشتراكية عربية لأنها اشتراكية قومية . وقـوميتها ليست نـابعة عن الأصالة القومية للأمة العربية فحسب ، وإنما هي نابعـة ، كذلـك ، من الظروف الموضوعية التي تحيط بالأمة العربية ، التي يأتي على رأسها تحدّي الامبريـالية لهـا وتحدي التجزئة .

ان تحدي الامبريالية ، واستيلاءها على ثروات بـلادنا الأسـاسية ، وتحكمهـا في انتاجنا واستهلاكنا ، وفي صادراتنا ووارداتنا ، ووسائل بيعنا وشرائنا ، وأسعار سلعنـا وبضائعنا ، بشكل مباشر او عن طريق « قوانـين السوق الحـرة » ، يجعل المهمـة الأولى لاشتراكيتنا مهمة « تحرير » للثروة القـومية لا مهمـة « توزيـع » لهذه الثـروة . من اجل ذلـك ، فإن تـأميم قناة السـويس يمكن ان يعتبر الخـطوة الأسـاسيـة الأولى والأهم في اشتراكية عبد الناصر ، كما أن تأميم النفط في العراق يمكن ان يعتبر الخـطوة الأساسيـة الأولى لاشتـراكية البعث في القـطر العراقي ، فـاشتـراكيـة البعث ، اذن ، اشتـراكيـة « قومية » بمعنى انها اشتراكية تستهدف ، أول ما تستهدف ، نفي التبعية وتحرير الثروة القومية وتحرير الارادة العربية .

وهي أيضاً قومية لصدورها عن الايمان بـأن الثروة العـربية هي في خـدمة الأمـة العربية لا في خـدمة قـطر من أقطارهـا ، وبأن الاشتـراكية الحقيقيـة لا يمكن ان تعمق جذورها وأن تأخذ مداها الواسع وان تحقق غاياتهـا الأصيلة الا حين تمتـد على الـوطن العربي الواسع ، والأمة العربية جميعا ، من اجل ان تتكامل الامكانات ، وتتسـع دائرة الموارد ، التعدينية والزراعية والصناعية والبشرية ، وينفرش محيط السـوق . إن البعث يؤمن بأن بناء الاشتراكية في رقعة ارض محدودة ، وعلى قاعدة اقتصادية ضيقة ، لاسيما اذا كانت محاطة بأنظمة رأسمالية تابعة ، سيظل بناءاً قاصراً عن بلوغ غـايته في المـدى

الواسع . لـذلك فـإن اشتراكيتـه اشتراكيـة « قوميـة » بمعنى أنها اشتراكيـة وحدويـة ، تستهدف نفي التجزئة من اجل اقامة قاعدة اقتصادية موحدة ، ومن أجل جمع وتـوحيد كل الامكانات والطاقات العربية .

واشتراكية البعث اشتراكية عربية لأنها اشتراكية « استقلالية » . ذلك انها ، بسبب اصالتها القومية ، وبسبب من محاربتها للتبعية ، قد تستفيد من كل الـطرق والاساليب والأهداف الاشتراكية المطروحة في العالم ، ولكنها تختط طريقها بنفسها ، وتحدد اهدافها بنفسها ، دون أن ترتبط بأي شكل من الاشكال الجاهزة ، ودون ان تتقيد « بدوغماوية » جامدة . إنها متفتحة العقل والقلب والتجربة ، مؤمنة بنفسها ، متصلة بجمـاهيرهـا ، حـريصة عـلى ان تكـون هـذه الجمـاهـير فـاعلة ومنفعلة في آن واحـد بعملية التغيير الاشتراكي .

ـ واشتراكية البعث اشتراكية عربية كذلك ، لأنها تتميز عن كل اشتراكية اخـرى بتوفر امكاناتها المادية للتغيير الاشتراكي كما لم تتوفر لأية تجربة اشتراكية اخرى . ان الثروة المعـدنية والـزراعية المتـوفرة لـلأمة العـربية ، والتي يمكن ان تـوضع في خـدمة التغيـير الاشتراكي ، تنفي الحاجة الى المرحلة التقشفية التي اضطرت معـظم الاشتراكيـات الى المرور فيها ، وتسهل عملية « التراكم الاشتراكي » لرأس المال الاجتماعي ، فلا نضطر الى التضحية برفاه الجيل الأول من الاشتراكيين لضمان رفاه الجيل الثاني او الثالث ، ولا تضطر الى التضحية بقطاع الخدمات في سبيل بناءقطاع الانتاج ، ولا الى التضحية بقطاع الانتاج الخفيف من اجل التركيز على الانتاج الثقيل ، إن هذا يجعل امر الموازنة بين هذه القطاعات جميعا ، وامر الموازنة بين التغييرات المادية والتغييرات الانسانية ، مسألة ملحة من جهة ، ومسألة قابلة للتنفيذ من جهة اخرى . وبذلك تنقذ الاشتراكية العـربية من كثير من اساليب القهر وألقمع التي اضطرت اليها الاشتراكيات الاخـرى ، وتزيـد من وشائج العلاقة الصميمية بين الجماهير الكادحة والتغييرات الاشتراكية .

ـ واخيراً ، فإن اشتراكية البعث هي اشتـراكية عـربية ، لأنها تجعـل من الانسان العربي هدف التغيير ووسيلته في آن معا . انها تؤمن بأن تغييرات تسهدف وسيلة الانتاج المادية فحسب ، او تغييرات تفرض من السلطة الفـوقية فحسب ، او تغيـيرات تنصب على رفع المستوى المادي المعاشي دون التركيز على معنى الانسـان وقيمة الانسـان ، هي

تغييرات تتضمن خسائر انسانية كبرى . إن توجيه الانسان وتوعيته ، واشراكه في عملية التغيير الاشتراكي نفسها ، وجعله الدافع الأساسي من ورائها ، والمتلقي الأول لثمارها ، والعامل الأساسي في التخطيط لها وفي تنفيذها ، هو الهم الأول للاشتراكية العربية ، ذلك أن البعث ، في أساسه ، ايمان بالانسان العربي ، وإيمان بامكاناته وإيمان بأن طريق البعث الحقيقي انما يمر ببعث هذا الانسان .

التطبيق الاشتراكي البعثي في القطر العراقي ■

١ ـ الأهداف

من هذا المفهوم البعثي للاشتراكية انطلق الحزب في القطر العراقي في عملية التحويل الاشتراكي ، مستهدفاً هدفاً أكبر بكثير من مجرد تغيير علاقات الانتاج ووسائل الانتاج ومستوى المعيشة . فلقد انطلق مستهدفاً « بعث » الأمة العربية ، مؤمناً بأن لا سبيل لمثل هذا البعث بغير الاشتراكية هذه الاشتراكية المتضمنة تحرير الطاقات الاقتصادية والانسانية للأمة ، وصولاً الى تحرير طاقاتها القومية والحضارية ، والى تحرير الانسان العربي ، والمتضمنة خلق مجتمع عربي متقدم غير طبقي ، لا استغلال فيه ولا استعباد ، مجتمع يتداخل فيه العلم والعمل ، القوة الفكرية والقوة العضلية ، المواهب الفردية والمواهب الجماعية ، النظرية والممارسة . في تكامل كلي .

٢ ـ العوائق

على أن البعث يدرك أن هدفاً كبيراً كبر هذا الهدف ما تزال تقف امام تحقيقه عوائق لا حصر لها . ولكنه يدرك ، في نفس الوقت ، أن هذه العوائق لا يجوز ان تكون مانعا للسير في الطريق الطويل الصعب ، بل دافعاً من دوافع النضال المستديم للتغلب عليها .

إن اول هذه العوائق هو أن الاشتراكية إنما تطبق في قطر واحد لا في الوطن العربي بأجمعه ، ولا في رقعة كبيرة من ذلك الوطن . ومثل هذا القيد يسمح ببناء القاعدة الاشتراكية ، ولكنه لا يسمح لها بأن تأخذ مداها ، لا سيما في زمن اصبح فيه الانتاج ، بعد الثورة التكنولوجية ، رأسماليا كان او اشتراكيا ، يعتمد على قاعدة اقتصادية انتاجية

واستهلاكية واسعة . فالاقتصار على القاعدة الاقتصادية القطرية لن يقتصر على اعاقة التقدم فحسب ، نوعاً وكما ، بل لا بد أن يعيق الانتصار على التبعية ، وعلى التخلف كذلك(١) . وبدلاً من أن توضع جميع امكانات العرب ، الاقتصادية والثقافية والبشرية ، في خدمة التحويل الاشتراكي والتنمية الاشتراكية فإن جزءاً ضئيلاً فحسب من هذه الامكانات يستعمل في هذا السبيل .

ثاني هذه العوائق هو التآمر الامبريالي الصهيوني الرجعي المستمر على القطر . وأحد أسباب هذا التآمر ، لا كلها ، هو هذا التصميم البعثي على التحويل الاشتراكي وعلى تحرير الاقتصاد القومي والارادة القومية من طغيان الاستغلال العالمي والهيمنة وقوانين « السوق الحرة » . ولعل اكثر ما يخيف الامبريالية والرجعية هو ان هذا التصميم لا يقتصر على القطر وحده ، وإنما يتطلع الى أن ينتقل الى الوطن العربي من جهة ، وأن يكون درساً وقدوة للعالم الثالث كله من جهة اخرى ، إن هذا التآمر يدفع القطر الى أن تكون له عين على التنمية الاشتراكية القومية ، وعين على التآمر الامبريالي الصهيوني الرجعي .

٣ ـ خصائص البعث في التطبيق

ومع ذلك ، وعلى الرغم من تلك العوائق . فقد سار البعث في طريق التنمية الاشتراكية ، وما يزال يسير ، بخطى واسعة حثيثة . وهو في هذا السير اختط لنفسه طريقاً استمده من منبعين رئيسيين . اولهما نظرة البعث الأصيلة كما طرحها الرفيق القائد المؤسس لتكون دليل عمل وهادياً منيراً . وثانيهما الخبرة الناتجة عن التطبيق والممارسة ، وإغناء تلك النظرة الأساسية بها .

بذلك ، اكتسب الحزب ، في تطبيقه الاشتراكي في القطر ، خصائص فريدة تجعل تجربته تجربة متميزة كل التميز ، تصلح لأن تكون نموذجاً وقدوة لمعظم بلاد العالم الثالث .

ـ إن اولى هذه الخصائص أن اشتراكية البعث هي اشتراكية تحرير للاقتصاد

(١) إن سيطرة العراق ، مثلا ، على حوالي ١٠٪ فقط من انتاج النفط العربي لا بد ان يكون قيدا على حرية القطر في تسعير انتاجه .

البعث والاشتراكية - الكتابات الأولى

القومي من الطغيان الامبريالي . واذا كان تأميم النفط هو اكثر مظاهر هذا التحرير وضوحاً وبروزاً ، فإن الخطوات التي اتخذها القطر في تحرير التجارة والتسويق والتصدير والاستيراد والنقل والتوزيع ، المحلي والدولي وكذلك تخطيه لقوانين السوق الحرة بالتعامل المباشر مع الدول والحكومات ما أمكنه ذلك ، كل ذلك ليس اقل شأناً من تأميم النفط . ومع ذلك ، فلعل اعظم ما أنجزه القطر في مجال التحرير ليس هذا ولا ذاك . وإنما هو الخطوات التي حققها في تحرير اليد العاملة الفنية والخبرة العلمية في الميادين التكنولوجية المتقدمة . وليس من شك عندي في أن أعظم ما يفرح قلب الانسان أن يصبح نفط الوطن للوطن ، من حيث التملك ، ولكن أن يكون التنقيب والاستخراج والنقل والتصفية والبيع ، في أيد عربية خالصة . ان تحرير الثروة ، ذاته ، ذو أهمية تاريخية بالغة . ولكن تحرير اليد الانسانية العربية ، والعقل الانساني العربي أكثر اهمية وخطورة .

ـ وثانية هذه الخصائص هي أن اشتراكية البعث اشتراكية تنمية وتحديث . فهي ، منذ البدء ، ادركت ان « توزيع » ما هو قائم من الثروة لن يقود الا الى توزيع الفقر والحرمان . وإن المشكلة الحقيقية الأساسية في الأقطار المتخلفة هي مشكلة « توفر » الثروة ومشكلة « انتاجها » لا مشكلة « توزيع » ما هو قائم منها فحسب . وإن هذه التنمية لا بد ، منذ البدء ، أن تكون تنمية اشتراكية ، أي تنمية تقفز من فوق المرحلة الرأسمالية وتتجاوزها ، وتجعل مصادر الثروة في يد المجتمع ، لتكون في خدمة المجتمع ،بواسطة المجتمع . بذلك ادركت أن المشكلة الحقيقية امام التحويل الاشتراكي ليست مشكلة رفع مستوى الاستهلاك بقدر ما هي مشكلة رفع مستوى الانتاج وكفاءة الانتاج . وعلى الرغم من هذا الادراك الواعي لطبيعة المهمة ، فقد كانت مدركة كذلك ان شعبنا قد عانى كثيراً من الحرمان والجوع والمرض والجهل . فلم تضح برفع مستوى الاستهلاك في سبيل رفع مستوى الانتاج ، ولم تضح بقطاع الخدمات ، وإنما وازنت بين هذا وذاك ، فكان للانسان ، من كل زيادة يحققها في التنمية الانتاجية ، نصيب وافر في تحسين اوضاع معيشته وتحسين مستوى حياته ، دون ان يكون ذلك على حساب التراكم الاشتراكي .

ولم يكن التوازن في التنمية قاصراً على ميداني الانتاج والاستهلاك . وإنما امتد

البعث والاشتراكية - الكتابات الأولى

ليشمل التوازن الدقيق بين التنمية الصناعية والزراعية ، بين التنمية المادية والانسانية ، وبين الصناعة الخفيفة والصناعة الثقيلة .

ـ وثالثة هذه الخصائص هي انسانية الاشتراكية . وهذه الانسانية مستمدة من نظرة الحزب الى الانسان من حيث هو القيمة الأساسية في المجتمع ، ومن ادراكه بأن التخلف الحقيقي الذي تعاني منه الأمة ، وإن ظن في مظاهر مادية مختلفة انما يتركز اساساً في تخلف الانسان ذاته ، وان الانتصار على التخلف إنما يتخذ أبعاده الحقيقية حين ينتصر الانسان على تخلفه .

إن الحزب قد انطلق من الايمان بأن التغييرات المادية التي يقوم بها في ميدان الانتاج ، وان كانت مهمة جدا وضرورية جدا ، ليست غاية في ذاتها ، بقدر ما هي وسيلة الى غاية . وانطلق ايضاً من الايمان بأن التغييرات المادية ، في ذاتها ، لا تغير الانسان اوتوماتيكياً ، وإنما تخلق ، فقط ، القاعدة المادية لهذا التغيير . ومن هنا فقد اعتمد الحزب ، من اجل تطوير الانسان وتحديثه ، طريقين في آن معاً . الطريق الأول هو طريق التغييرات المادية في ميدان الانتاج . والطريق الثاني هو تطوير الانسان بواسطة الحزب والنضال الحزبي والوعي والتثقيف الحزبي . ومن هنا يمكن القول بأن تطوير الانسان المتخلف لم يبدأ يوم وقف وراء الآلة الحديثة بقدر ما بدا يوم بدأ نضاله ضد الاستعمار وضد الحكم الرجعي .

إن الذي فعله الحزب وما زال يفعله في تطوير الانسان ، داخل الحزب وخارجه ، وفي المنظمات الشعبية والمهنية ، وفي ميدان العمل الشعبي ، وفي اشراك الجماهير حيثما أمكن في تنفيذ المهمات الشعبية الكبرى ، كعملية الاحصاء القومي او عملية محو الأمية ، وفي نشر التعليم وأيصاله الى كل المستويات ، وفي التوسع في دور الحضانة ، وفي ربط التغيير المادي الانتاجي بتربية الكوادر الفنية المهيأة لادارة هذا الانتاج ، وفي التوعية المستمرة بالاعلام والتوجيه والارشاد . كل ذلك انما يؤكد ايمان الحزب بالانسان ويترجم هذا الايمان الى حقل الواقع .

بالاضافة الى ذلك . فإن تصميم الحزب على ايصال الخدمات الى الريف ، ومده بالماء والكهرباء والطرق ، ونشر المدارس والعيادات الصحية فيه ، والعمل على تبديل

احوال السكن وتحديثها ، واسكان العمال في مدن صناعية تقام في مناطق العمل نفسها ، مع تهيئة كل ما قد يحتاجه الانسان من خدمات ومن رياضة ومن ترفيه ، كل ذلك انما ينبع من الايمان بالانسان وكل ذلك جعل الثورة تعطي الانسان حسب انتاجه وحسب حاجته في آن معاً .

وفي المجتمع لا يجوز ان يكون الانسان فيه متلقياً محضاً ، بل صانعاً لهذا التغيير . وفي ذلك يقول الرفيق القائد المؤسس « ان الجماهير ، اذا اعطيت منجزات لصالحها ، فإنها تقبلها ولا ترفضها . أما اذا استطاعت هي ان تحقق بنضالها هذه المنجزات ، فإنها تصبح منجزات ثورية ، لأنها تحققت على أيدي جماهير مناضلة ، تعرف كيف تحميها وتدافع عنها » .

إن الحزب ، في حرصه على تغيير الانسان حرصه على تغيير المعطيات المادية في المجتمع . ليحرص على ان تكون مسافة التغيير المادي المتحققة مسافة يمكن للانسان أن يقطعها دون ان يقدم تضحيات او خسارات كبيرة . إن احداث التغييرات المادية في المجتمع ، حين يتوفر رأس المال اللازم لها ، ليس امراً بالغ الصعوبة . ولكن الأمر الذي يحتاج الى جهد جهيد ومنظم يرقى الى مستوى النضال ، هو أن يحقق « الانسان » تقدماً موازياً لما يتحقق من تقدم مادي .

ـ أما رابعة هذه الخصائص فهي المرونة في التطبيق والابتعاد عن الانغلاق والمذهبية الجامدة . هذه الخاصة تنبع ايضا من الايمان بالانسان ، كما تنبع من ادراك « الحدود القطرية » التي تطبق فيها الاشتراكية ، ومن ادراك اثر الاوضاع الرأسمالية في الاقطار العربية المجاورة . ولكنها تنبع فوق ذلك كله من الايمان بنظرة الحزب التاريخية الى المجتمع العربي ، وفهم مشاكله ومآسيه من جهة ، وطموحاته وتطلعاته من جهة اخرى . وكذلك من الايمان بجدلية العلاقة بين الممارسة والنظرية .

لقد أخذ الحزب كل هذه المنطلقات ، النظرية والواقعية ، بعين الاعتبار حين قرر ، مثلاً ، موقفه من الملكية الخاصة ، أو من المسألة الزراعية . فبالنسبة الى الملكية الخاصة ، فلم يتبع مذهباً جامداً دوغماوياً فيها ، وإنما ترك لها قطاعا تعمل فيه وتنشط ،

ما دامت بعيدة عن الاستغلال ، ولاسيما استغلال جهد الانسان ، وما دامت بعيدة عن امكانات التراكم الرأسمالي الذي ينافس التنمية الاشتراكية ، ووضع لتقييدها وتحجيمها قوانين ونظماً تتطور مع تطور التنمية الاشتراكية .

اما بالنسبة للمسألة الزراعية ، فلم يتبع اسلوباً واحداً في السياسة الزراعية ، وانما قرر المضي في انشاء مزارع الدولة ، والمزارع الجماعية ، والزراعة التعاونية ، جنباً الى جنب مع زراعة الملكية الفردية ، واضعاً نصب عينيه تشجيع العلاقات الاشتراكية في الزراعة وتقوية حوافزها ، وتقليل القطاع الفردي دون الغائه بالقوة. فتجنب بذلك مشكلتين اساسيتين وقعت فيهما تجارب اشتراكية دغماوية أخرى ، أولاهما ضعف الانتاج لسنوات طويلة وثانيتهما استعمال قوة القهر والعنف في تطبيق السياسة الزراعية . بذلك تمكنت الثورة من زيادة الانتاج مباشرة ، كما تمكنت من حفظ كرامة الانسان العربي في الوقت نفسه .

ـ أما خامسة هذه الخصائص فهي « ديموقراطية الاشتراكية » فالسياسة الاشتراكية لم تفرض على جماهير الشعب فوقياً . وإنما جاءت ، منذ البدء ، استجابة لطموحات جماهيرية اصيلة وجذرية . وسياسة « الندوات » و« المؤتمرات » التي تعقد في جميع المستويات ، سواء على نطاق التخطيط او على نطاق التنفيذ ، وما يجري فيها من مناقشات ومحاسبات ونقد ونقد ذاتي ، إنما هي خطوة اولى في طريق طويل نحو تحقيق الديموقراطية الشعبية المنشودة .

ـ وسادسة هذه الخصائص ، آخرها في هذه العجالة ، فهي « قومية الاشتراكية » : بمعنييها السلبي والايجابي . أي بالتصميم على طرد الاحتكار الاجنبي وتحرير الثروة القومية والاقتصاد القومي ، وبالتصميم على بناء تنمية اشتراكية قومية تمتد آثارها الى الوطن العربي كله . ولا بد هنا من الاعتراف بأن « تحقيق » هذا الهدف كان اقل من مستوى الطموحات ، بسبب الاوضاع العربية الراهنة التي تمعن في تجزئة الوطن العربي ، من جهة ، وتمعن في دفع الاقطار العربية الى طريق التبعية الرأسمالية في جانب التبعية السياسية . ومع ذلك فقد عمل الحزب على ان يجعل « صناعته القاعدية » ذات بعد قومي ، وأن يوازن بين « متطلبات التنمية »

و« متطلبات التحرير القومي » ، وأن يضع ثروته وخبرته في خدمة تنمية عدد من الاقطار العربية وفي خدمة بنائها الاقتصادي .

من هذا كله تبدو لنا معالم واضحة في التطبيق الاشتراكي لحزب البعث في القطر العراقي . ويمكن تلخيص هذه المعالم بأنها ايمان عميق ، ايمان بامكانات الأمة وقدرتها ومستقبلها ، إيمان بأن الطريق الثوري هو طريقنا الوحيد لتحرر امتنا ، وايمان بأن الانسان العربي قادر على بناء مجتمعه الذي يريد ، مجتمع موحد اشتراكي حديث متقدم لا استغلال فيه ولا استعباد ، تلتحم فيه الطاقات جميعا ، ويجد فيه كل مواطن ذاته .

١٩٧٨



البعث والاشتراكية - الكتابات الأولى